الفصل الثالث عشر

بديـــع النســـق

المشاكلة والمناسبة ومراعاة النظير

المشاكلـــة:

فى اللغة هى المُمَاثلة ، وفى المصطلح :"ذِكْرُ الشَّىْءِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ لِوُقُوعِهِ فى صُحْبَتِهِ"(١٠١) ، كقوله تعالى :(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) فالجزاء من السيئة فى الحقيقة غَيْرُ سَيِّئَةٍ ، والأصل جَزَاءُ سَيِّئَةٍ عُقُوبَةٌ مِثْلُها ، فهى ليست من المشترك اللفظي كالجناس التام ولكنها تَجَوُّزٌ فى دِلَالَةِ اللفظِ الثانى بالإشارة إلى دِلَالَةِ اللفظ الأول .

ومثله قوله تعالى : (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب) والأصل تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما عِنْدَك فإن الحقَّ تَعَالى وتَقَدَّسَ لا يستعمل فى حقه لفظ النفس إلا أنها اسْتُعْمِلَت هنا مشاكلة لما تقدم من لفظ النفس .

ومنه قوله تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) والأصل أخذهم بمكرهم. ومنه قوله تعالى :(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)أى فعاقبوه ، فَعَدَلَ عن ذلك لأجل المشاكلة اللفظية .

وفى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم :" فَإِنَّ اللَّهَ لايَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا" الأصل فإن الله لايقطع عنكم فَضْلَهُ حتى تَمَلُّوا من مسألته ، فوضع لايمل موضع لايقطع الثواب على جهة المشاكلة .

ومنه قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا

أى فنجازيه على جهله فجعل لفظ نجهل موضع فنجازيه لأجل المشاكلة ومثله قول الشاعر :

قَالُوا اقْتَرِحْ شَيْئًا نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ قُلْتُ اطْبُخُوا لِى جُبَّةً وقَمِيصًا

أراد خيطوا فذكره بلفظ اطبخوا لوقوعه فى صحبة طبخه .

المنـــــاسبة

المُنَاسَبَةُ على ضَرْبَيْنِ : مُنَاسَبَةٌ فـى المَعَـانِى ، ومناسـبة فـى الألفـاظ ، فالمعنوية هى أن يبتدئ المتكلم بمعنى ، ثم يتم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ .

والمناسبة المعنوية كثيرة فى الكتاب العزيز ، منها قوله تعالى :(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُم كَمْ أَهْلَكْنَا من قبلهم مِنَ القُرُونِ يَمْشُونَ فى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فى ذلك لآياتٍ أفلا يسمعون. أولم يَرَوْا أنا نَسُوقُ المَاءَ إلى الأَرْضِ الجُرُزِ فنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تأكل منه أَنْعَامُهُم وأَنْفُسُهُم أَفَلاَ يُبْصِرُون .) السجدة ٢٦-٢٧ . فقد قال سبحانه وتعالى فى صدر الآية التى هى للموعظة (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُم) . ولم يقل (أَوَلَمْ يَرَوْا) لأن الموعظة سمعية . وقد قال بعدها (أفلا يسمعون .) وقال فى صدر الآية التى موعِظَتُها مرئية أَوَلَمْ يَرَوْا . وقال بعد الموعظة البصرية أفلا يبصرون .

وقد عرض أحد الشعراء هذا البيت على شاعرٍ ناقد وهوفى المدح :

خَبِيرٌ بِتَدْبِيرِ الأُمُورِ فَمَنْ يَرَى سِوَى مَا يَرَاهُ فهوفى هذه أعمى

فقال الشاعر الناقد لصاحبه : أن تقول لأجل المناسبة المعنوية موضع خبير : بصير .

ومن الشواهد الحسنة فى المناسبة المعنوية قول المتنبى :

عَلَى سَابِحٍ مَوْجُ المَنَايَا بِنَحْرِهِ غَدَاةَ كَأَنَّ النَّبْلَ فى صَدْرِهِ وَبْلُ

فإن بين لفظة (السباحة) ولفظتى (الموج) و(الوبل) تناسبا معنويا صار البيت به متلاحما .

والذى عقد الناس عليه الخناصر فى هذا الباب قول ابن رشيق القيروانى :

أَصَحُّ وأَقْوَى رَوَيْنَـــاهُ فِى النَّدَا مِنَ الخَبَـرِ المَأْثُـورِ مُنْذُ قَدِيمِ

أَحَادِيثُ تَرْوِيهَا السُّيُولُ عَنِ الحَيَا عَنِ البَحْرِ عَنْ جُودِ الأَمِيرِ تميم

قال زكى الدين بن أبى الاصبع : هذا أَحْسَنُ شِعْرٍ سَمِعْتُهُ فـى المناسبة المعنوية، فإنه وَفَّى المناسَبَةَ حَقَّهَا . وناسَبَ فى البيت الأول بين الصِّحَّة والقوة والرواية والخبر المأثور . وناسَبَ فى البيت الثانى بين الأحاديثِ والرِّوَايةِ

والعنعنة ، وهذا مع صِحَّـةِ ترتيب العنعنـة من أنهـا جـاءت صَـاغِرًا عن كـابر ، وآخِرًا عن أَوَّلِ كما يَقَعُ فى سَنَدِ الأحاديث؛لأنَّ السيول فَرْعُ الحَيَـا أَصْلُهُ ، وكذلك الحَيَا فَرْعُ البَحْرُ أَصْلُه . ثم نَزَّلَ البَحْرَ مَنْزِلَةَ الفَرْع وجُـودَ الأمـير مَنْزِلَـةَ الأصـل للمبالغة فى المدح وهكذا فإنه غاية الغايات فى هذا الباب .

أما المناسبة اللفظية ، وهى دون رُتْبة المعنوية فهى: الإتْيَانُ بكَلِمَاتٍ مُتَّزِنَـاتٍ ، وهى على ضربين : تامة ،وغير تامة .

فالتامة : أن تكون الكلمات مع الاتِّزَانِ مُقَفَّـاةٍ ، وغَيْرُ التامـة : موزونـة غير مُقَفَّاة .

فمن شواهد التامة قوله تعالى :(ن والقلم وما يسطرون ، مـا أنت بنعمـة ربـك بمجنون ، وإن لك لأجرا غير ممنون) القلم ١– ٣

ومنها قولـه صلى الله عليـه وسلم ممـا كـان يرقـى بهمـا الحسـنين عليهمـا السلام:(أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةْ ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةْ ، ومِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةْ.) ولم يَقُل عليه السلام مُلِمَّةٍ وهى القياس لمكان المناسبة اللفظية .

ومن شواهد المناسبتين الناقصة والتامة قول أبى تمام :

مَهَا الوَحْشِ إلاّ أَنَّ هَاتَا أَوَانِسٌ   قَنَا الخَطِّ إلاَّ أَنَّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

فناسب بيـن مهـا وقنـا مناسبة تامـة ، وبيـن الوحـش والخـط وأوانـس وذوابـل مناسبة غير تامة .

قال صاحب تحرير التحبير : هذا البيت من أفضل بيوت المناسبة المعنوية لما انضم إليه فيها من المحاسن فإن فيه مع المناسبتين التشبيه بغير أداة ، والمسـاواة ، والاستثناء ، والطباق اللفظى ، وائتلاف اللفظ مع المعنى والتمكين .

فأما المناسبة فيه قد عرفت ، وأما التشبيه ففى قوله مها وقنا فإن التقدير كمها وكقنا وحذف الأداة ليدل على قرب المشبهمن المشبه به .

وأما الاستثناء البديعى ففى قوله :(إلا أن هاتا أوانس) ، وقوله (إلا إن تلك ذوابل) ليثبت للموصوفات التأنيث وينفى عنهن النِّفَارَ والتوحش . وكذلك فعل فى الاستثناء الثانى فإنه أثبت لهن اللين ونفى عنهن اليُبْسَ والصلابة .

وأما المطابقة ففى قوله:(الوحش وأوانس) و(هاتا وتلك) فإن هاتا للقريب وتلك للبعيد .

وأما المساواة فلفظ البيت لا يَفْضُل عن معناه ولا يقصر عنه .

وأما الائتلاف فلكون ألفاظه من وادٍ واحد متوسطة بين الغرابة والاستعمال وكل لفظة منها لَائِقَةٌ بمعناها لا يكاد يصلح مَوْضِعَهَا غَيْرُها .

وأما التمكين فاستقرار قافية البيت فى موضعها وعدم نفارها فى محلها .

ويحتاج تحليل ابن أبى الأصبع فى كتابه تحرير التحبير ما اشتمل عليه بيت أبى تمام من وجوه البديع إلى شرح مصطلح **الاستثناء البديعى** :

الاستثناء استثناءان : لغوى وصناعى

فاللغوى إخراج القليل من الكثير وقد فَرَّعَ النُّحَاةُ من ذلك فى كتبهم فروعا كثيرة .

والصناعى هوالذى يفيد بعد إخراج القليل من الكثير معنىً يزيد على معنى الاستثناء ويكسوه بهجة وطلاوة ويميزه بما استحق من الثبات فى أبواب البديع ، كقوله تعالى : (فَسَجَدَ المَلَائِكَةُ كُلُّهُم أَجْمَعُونَ إلا إِبْلِيسَ) الحجر ٣٠ فإن فى هذا الكلام معنى زائدا على مقدار الاستثناء وذلك ليعظم الكبيرة التى أتى بها إبليس من كونه خرق إجماع الملائكة وفارق جميع الملأ الأعلى .

ومن الاستثناء نوع سماه ابن أبى الإصبع استثناء الحصر، وشاهده :

إِلَيْكَ وإلَّامَا تُحَثُّ الرَّكَائِبُ　　　وعَنْكَ وإلَّا فالمُحَدِّثُ كَاذِبُ

فإن خلاصة هذا البيت قول الشاعر للممدوح : لاتُحَثُّ الرَّكَائِبُ إلَّا إِلَيْكَ ، ولا يَصْدُقُ المُحَدِّثُ إلا عَنْكَ .

وسماه ابن المعتز تَوكِيدُ المدح بما يُشْبِهُ الذَّمَّ وشاهده قول النابغة الذبيانى :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

فجعل فلول السيف عيبا ، وهوأَوْكَدُ فى المدح .

قال ابن رشيق القيروانى فى كتابه العمدة : ومن هذا الباب قول ابن الرومى :

لَيْسَ لَهُ عَيْبٌ سِوَى أَنَّهُ لَاتَقَعُ العَيْنُ على شِبْهِهِ

فجعل انفراده فى الدنيا بالحُسْنِ دون أن يكون له قرين عيبا ، فهويزيد توكيد حسنه .

---

*مراعاة النظير(١٠٣)

يسمى هذا الوجه البديعى : التناسب والائتلاف ، والتوفيق ، والمواخاة . وهوفى الاصطلاح : أن يجمع الناظم أوالناثر أَمْرًا وما يُناسِبُه مع الغاء ذلك التضاد ولتخرج المطابقة :

وسواء كانت المناسبة لفظا لمعنى ، أولفظا للفظ ، أومعنى لمعنى إذ القَصْدُ جَمْعُ شَيْءٍ إلى ما يُناسِبُهُ مِنْ نَوْعِهِ أوما يُلَائِمُهُ مِنْ أَحَدِ الوُجُوهِ . كقول البحترى فى إبل أنحلها السير :

كالقِسِيِّ المُعَطَّفَاتِ بَلْ الأَسْـــــهُمِ مَبْـرِيَّةً بل الأَوْتَارِ

فإنه لما شبه الإبل بالقِسِيِّ وأراد أن يُكَرِّرَ التشبيه كان يمكنه أن يشبهها بالعراجين أوبنون الخط؛لأن المعنى واحد فى الانحناء والرقة ولكنه قصد المناسبة بين الأسهم والأوتار لما تقدم ذكر القسى .

ومثله قول بعضهم فى آل النبى صلى الله عليه وسلم

أَنْتُمْ بَنُـوطَهَ ونُـون والضُّـحَى وبَنُوتَبَارَكَ فى الكِتَابِ المُحْكَمِ

وَبَنُوالأَبَاطِحِ والمَشَاعِرِ والصَّفَا والرُّكْنِ والبَيْتِ العَتِيقِ وَزَمْزَمِ

فقد أحسن فى مراعاة النظير وأتى فى البيت الأول بحُسْنِ المناسبة بين أسماء السور ، وفى الثانى بحُسْنِ المناسبة بين الجهات الحجازية.

قال ابن حجة : ويعجبنى قول السلامى فى هذا الباب :

وَالنَّقْعُ ثَوْبٌ بالسُّيُوفِ مُطَرَّزٌ   وَالأَرْضُ فَرْشٌ بالجِيَادِ مُحَمَّلُ
وَسُطُورُ خَيْلِكَ إِنَّمَا أَلِفَاتُهَا   سُمْرٌ تُنَقَّطُ بالدِّمَا وَتُشَكَّلُ

فإنه ناسب بين الثوب والتطريز وبين الفرش والحمل وبين السطور والألفات والنقط والشكل . ومثله قول أبى العلاء المعرى:

دَعِ اليَرَاعَ لِقَوْمٍ يَفْخَرُونَ بِهَا   وبالطِّوَالِ الرُّدَيْنِيَّاتِ فَافْتَخِرِ
فَهِىَ أَقْلامُكَ اللاتِى إِذَا كَتَبَتْ   مَجْدًا أَتَتْ بِمِدَادٍ مِنْ دَمٍ هَدْرِ

فأبوالعلاء أيضا ناسب بين الأقلام والكتابة والمِدَادِ .

وغاية الغايات فى هذا الباب قولُ بديع الزمان الهمذانى من قصيدة يصف فيها طُولَ السُّرَى :

لَكَ اللَّهُ مِنْ لَيْلٍ أَجُوبُ جُيُوبَهُ   كَأَنِّى فِى عَيْنِ الرَّدَى أَبَدًا كُحْلُ
كَأَنَّ السُّرَى سَاقٍ كَأَنَّ الكَرَى طِلاً   كَأَنَّا لَهُ شَرْبٌ كَأَنَّ المُنَى نَقْلُ(١٠٤)
كَأَنَّا جِيَاعٌ والمَطِىُّ لَنَا فَمٌ   كَأَنَّ الفَلا زَادٌ كَأَنَّ السُّرَى أَكْلُ
كَأَنَّ يَنَابِيعَ الثَّرَى ثَدْىُ مُرْضِعٍ   وفى حِجْرِهَا مِنِّى وَمِنْ نَاقَتِى طِفْلُ

وقد عابوا على أبى نواس قوله :

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينًا   مُبَرَّرَةً لا تَكْذِبْ
بِرَبِّ زَمْزَمَ والحَوْ   ضِ والصَّفَا والمُحَصَّبْ

فالحوضُ هنا أجنَبِىٌّ مِنَ المُنَاسَبَةِ لأنه ما يُلائِمُ المُحَصَّب والصَّفَا وَزَمْزَم ، وإنما يناسِبُ الصِّرَاطَ والمِيزَانَ وماهومَنُوطٌ بيوم القِيامة .

وقد سَمَّى هذا الوجْهَ البديعِىَّ ابنُ أبى الإصبع المصرى فى كتابه (بديع القرآن) التفويف(١٠٥) . وقال فى تعريفه :" هوإتيان المتكلم بمَعَانٍ شَتَّى من المدح والوصف والنسيب وغير ذلك من الفنون التىينتجها المتكلمون كل فن فى جملة منفصلة من أختها بالسجع غالبا مع تساوى الجمل فى الزِّنَةِ . ويكون بالجمل الطويلة والجمل المتوسطة والجمل القصيرة "(١٠٦)

فمثال المركب من الجمل الطويلة قوله تعالى-حكاية عن الخليل عليه السلام-: (الذى خلقنى فهويهدين ، والذى هويطعمنى ويسقينى وإذا مرضت فهويشفين والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين) الشعراء ٧٨-٨٢ .

ومثال ماركب من الجمل المتوسطة قوله تعالى :(تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى) آل عمران ٢٧.

قال ابن أبى الإصبع وفى كلا هاتين الآيتين من المحاسن بعد التفويف طرف من المحاسن يستفز العقول طربا ....